المحاضرة السادسة:

الدولة والتاريخ (هيجل والدولة)

فلسفة التاريخ عند هيجل:

لا يمكن فهم نظرية هيجل في التاريخ إلا من خلال النسق العام لفلسفته، ويستند نسقه الفلسفي إلى أساسين: الميتافيزيقا و المنطق، وليس هذا الأخير علما مغاير للميتافيزيقا، بل يمكن أن يعد المنطق منهجا ، والميتافيزيقا موضوعا ولا يستقل الاثنان بدورهما عن أي علم يعالجه هيجل. تقوم ميتافيزيقا هيجل على أنه: " ليس في الوجود كثرة، سواء أكانت ذرات أم أفراد أو ظواهر أولية وحدات مستقلة...إذ ليس من موضوع حقيقي إلا الكل"، أو المطلق على حد تعبيره، وليس الكل هنا مجموع أجزاء وإنما وحدة مطلقة لا تعتمد على شيء خارج عنها، فهي كل شيء على الإطلاق.

1- علاقة الميتافيزيقا بالتاريخ: (الأحداث التاريخية)

إن فردية الواقعية التاريخية أو الشخصيات فان عظماء التاريخ منحوا بصيرة نافذة بمتطلبات مجتمعاتهم لا يدركون دلالة أفعالهم، إنهم وسائل أو ذرائع لقوة أعظم وأعمق هي الروح التي تسري في هذا الوجود المطلق لتسوس الكون وتجعل مسار التاريخ معقولا. تعتبر الروح عن وعيها خلال التاريخ ومن ثم فكل شيئ يتم وفق مخطط مرسوم تتخذ الحوادث بموجبه مجراها. لذا، فلا مجال للقول بالمصادفة في التاريخ ، ولا يصح تفسير وقائع التاريخ بعلل جزئية فهذه ليست إلا أسبابا عرضية ظاهرية، فالروح المطلق يسري في أرجاء الوجود بما في ذلك تاريخ الإنسان فلا يصح خارج المطلق شيئا على الإطلاق.

لكن السؤال الذي نطرحه:

كيف يمكن الكشف عن سر هذه الروح التي تسري في مجريات وقائع التاريخ، وأي منطق يفصح عن باطن الأحداث؟

هنا يعارض هيجل منطق ارسطو القائم على قوانين الفكر وأخصها الذاتية وعدم التناقض، لأنه يعبر عن ستاتيكية العقل، فهو قاصر عن الكشف عن ديناميكية الوجود، وحركة التاريخ، بل ما يكشف عن حركة الوجود يتمثل في منطق الديالكتيك أو الجدل.

نستخلص من الميتافيزيقا و المنطق باعتبارهما أساس لفهم نظرية هيجل في التاريخ مبدأين:

1-إن التاريخ ظاهر وباطنه، ظاهره أحداث ووقائع تبدو في حالة فوضى وبدون هدف، أما باطنه هي تلك الروح التي تسير مساره المحكم.

2-يستند منطق التاريخ إلى صراع الأضداد إذ لا تكشف الروح على نفسها على مسرح وقائع التاريخ إلا من خلال صراع، ومن ثم فإن الديالكتيك هو سر حركة التاريخ، ومنطق الكشف عن وقائعه.

2- دور الروح المطلق في مسار حركة التاريخ:

يمكن إدراك معنى الروح وما يقابلها بالمادة، فجوهر المادة هو الجاذبية أما جوهر الروح هو الحرية، وخصائص الروح كامنة كلها في الحرية، ومعنى الحرية تعني أن لا وجود لقوة خارج الروح تؤثر فيها او تتحكم كما هو الحال في المادة.

تكشف الروح عن وعيها الذاتي بالحرية، كما تكشف عنه في التاريخ العالم يعبر عن تقدم الوعي بالحرية، لم يكن الشرقيون وقدماء على وعي بأن الروح حر، فلم تكن هناك حرية إلا للفرد الواحد، وكان مفهوم الحرية لديه غامض فجاء يتمثل في الاستبداد والطغيان، انبثق الوعي بالحرية لأول مرة لدى اليونان إلا أنها كانت لفئة الأرستقراطية ، ولم تصل الحرية إلى مرحلة الوعي الكامل إلا لدى الأمة الجرمانية متمثلة في البوسية بفضل الديانة المسيحية، حيث أصبح كل الكل حر، والمقصود بالكل إرادة الدولة التي تعبر عن إرادة الكل.

يظهر التاريخ عند هيجل في ظاهره مسرحا للنشاط الإنساني، وتمثل شخصيات التاريخ دورا بارزا فيه، وتبدو أفعالهم راجعة إلى مواهبهم واحتياجاتهم، كل ذلك ما هو إلا دورا جزئيا ثانويا في اطار كل عام، ليس التاريخ أفعال جزئيين، وإنما موضوعه ذلك الصراع بين العوامل و القوى المتعارضة ووعي الروح بذاتها بل تحقيق لذاتها من خلال هذا الصراع، إن الأحداث الحاسمة في التاريخ ليست نتيجة فعل واع حر في الإنسان، بل ما هو إلا خيوط غزل في نسيج عام هو هدف الروح من مسار التاريخ.

3- دور الدولة:

الدولة هي وحدة دراسة التاريخ، إنها الحرية في صورتها الواقعية، إنها تمثل تموضع الروح، أو الفكرة الإلهية متجسدة في الأرض. كل نشاط بشري إنما يتحقق من خلال الدولة وأنظمتها، ومن ثم فهي الصورة النهائية التي عندها تشكل موضوع التاريخ. إن قيام الدولة أمر عقلي في ذاته ولذاته، من حيث أنها تعبر عن إرادة الروح وتموضعها أو تجسدها في صورة واقعية، كما تتركز الدولة في سلطة الملك الحاكم، إنه يحمل حسب هيجل رسالة العالم التاريخية و يعبر عن إرادة الروح.

4- تطور التاريخ عند هيجل:

لقد قسم هيجل التاريخ إلى ثلاثة أنواع:

1-التاريخ العادي الأصلي.

2-التاريخ النظري: الذي يريد أن يفسر ويعلل.

3-التاريخ الفلسفي أو فلسفة التاريخ: وهو يحاول أن يجد منظومة من التفسير للتاريخ الأوروبي فحسب، بال تاريخ العالم ككل كم خلال المنطق الهيجلي.

أن أرقى ما في الإنسان هي الأفكار، وإن أصل الوجود هي الأفكار والفكر. والمطلق الهيجلي الكل الميتافيزيقي المطلق، إذ يتطور مع الروح المطلق بصراع الأفكار ما يسمى بديالكتيك الفكر. إن كل عصر وأفكاره السائدة، وهذه الأفكار ما تلبث بعد فترة أن يحصل لها تصارع مع الأفكار الأخرى، وتولد أفكار أخرى وهكذا.

إن نظرية هيجل بلغت من التجريد، وجعل النظرية مفتقرة تماما إلى المادة التجريبية، كما تصور التقدم بمنطق ميتافيزيقي، إذ جرد التقدم من كل مضمون له.